

نبض الجنوبيين بعد خمس عشرة سنة... ذكريات ومواويل وأشعار وحقول تبغ تختزل الصمود النصر والتحرير... والعين على فلسطين لتكتمل بهجة العيد



تصوير: محمد أبو سالم



تحقيق عبير حمدان

تعد يدك لتتوقف زهرة برية، فتدرك كم هي راسخة في قلب التراب المجدول بالعرق ودماء الشهداء، حين يلمح طائر النورس عابراً على طول الخط البحري، يزهو بمرآته الزرقاء. وتخال أن تراقص الموج ينذر ببداية العرس، إذ يلتقي صياد هارب من ضجيج الكون، حوريته المتسللة إلى مكان ما بين صخور الشاطئ.

الناقورة، هناك كان الصبح مختلفاً، وكأن البحر بداية الاحتفال بالعيد. يفتح الجنوب قلبه ليضمّ زواره، وتزهو شتلة التبغ بأخضرها اللامع تحت الشمس، فقد غاب زمن السواد، لم تعد الأرض محترقة، أثرت مواسم عزّ وانتصارات. تسير حيث عبروا، قد نجد طيف بندقية، ونخشي أن ندوس ذاك التراب. هي أرض مقدسة، لبتنا نملك قدرة اليأس كي نخلق عالماً ويلفحنا نسيم فلسطين التي تراقفنا على طول الطريق من الناقورة وعلما الشعب والزهيرة ورامية ورميش وصولاً إلى بنت جبيل ومارون الراس وياطر وصديقيين وقانا، وقرى كثيرة تقيم في البال، وغابت سهواً خمس عشرة سنة من زمن التحرير، ولم يزل نبض الناس متقدماً وكأنهم ينتظرون إشارة ما ليذعوا الأسلاك الشائكة التي تفصلهم عن فلسطين، غير أبهين بقرارات أممية وحسابات سياسية داخلية، فداسرائيل، بنظرهم «أوه من خيط العنكبوت»، تماماً كما يقول لهم السيد في زمن الانتصارات.

منهم من كسر القيد، ومنهم من نظم الشعر، وجميعهم اختصروا الوطن ببريق لونه من خيوط الشمس حين ترنو إلى غفوتها، ومنهم من أخبرنا أن الأغنية بكلماتها الأصلية تقول: «يا رايح ع الحدود والهوى جنوبي سلملي ع الجنود سلملي ع محبوبي».

التي حرّرت الجنوب، لهو انتماء مشرف وأخلاقي، إذ أظهرت كل المحبة لأهالي القرى المحررة، بعدما منحتمهم الأمان.

ويختتم الأب العميل بتوجيه معابدة إلى كل اللبنانيين، ويتمنى أن يحزر كل شبر من الأرض اللبنانية، كي يبقى هذا العيد أديباً.

بنت جبيل الملونة

كانت ساحة بنت جبيل تضجّ بالألوان، والجميع يتحضرون للاحتفال بالعيد. لعل فرحة الناس منعتمهم من التعبير، وتركوها لنا حزية التجول في شوارع المدينة وأزقتها، ربما نتمكن من ترجمة فرحهم ببعض اللقطات الملونة التي تختصر التصاريح الإعلامية، وحبير المطبوعات الورقية.

مارون الراس الجارة الأقرب

ضحكات الأطفال في حديقة مارون الراس كافية لتترجم معاني العيد. والجسور الخشبية المعلقة تشهد على حجم الهزيمة التي أصابت الصهيوني. ويكفي أن تشير بأصبعك إلى فلسطين لتدرك أنك على قاب رصاصتين أو أدنى من فعل عودة الحق إلى أصحابها.

الفرحة بالعيد كبيرة، وتزداد مع مرور السنين، لكن لسان حال الجنوبيين، لا بل الهواء والتبغ والزيتون وكل ما في الجنوب يقول: لا تكتمل بهجة العيد إلا بعد تحرير فلسطين، كل فلسطين. لا تكتمل بهجة العيد إلا عندما يعود صوت بائع يصيح في بنت جبيل ويقول: «يافاوي يا ليون»، وإلا عندما يعود أهل الجنوب كما كل اللبنانيين لتذوق الكنافة النابلسية مصنوعة بأياد فلسطينية طاهرة. لا تكتمل بهجة عيد النصر والتحرير إلا عندما يُمرّق ذلك الشريط الكافر، الذي يجسد تخوماً مصطنعة، فتحرّر فلسطين، ونشهد جلاء الصهيوني الأخير من على مرفأ حيفا، وتعود الأسماء الفلسطينية إلى المدن والبلدات والقرى.

لم يعد الأمر حلاً، فالغالبون على أهمة الاستعداد، أصابعهم على أذنّة البنادق، وعيونهم لا ترى إلا النصر، وقلوبهم نابضة بالعنفوان، هم يدركون أن العدو أوهم من بيت العنكبوت، يمارسون فعل البطولة، ولا خوف من الحرب، وإنما من الفشل. قدرهم وقدرنا الانتصار، وقدر المحتل أن يلحق بكلّ تنين قتل في هذه الأرض بعدما أراد فيها احتلالاً واستعماراً، وإن لم تصدقوا، فاسألوا الإسكندر المقدوني، والبيغض العثماني، والتاجر البريطاني، والتملق الفرنسي.

رميش وأبدية العيد

يستقبلنا الأب نبيل العميل، كاهن رعية رميش، براحة القهوة. وهنا يصيح الاستعجال أمراً غير ذي أهمية. بعد جولة طويلة، يطيب مذاق السائل البني في حرم مدرسة رميش الرسمية، ويمتحننا جرس «الفرصة» لاستعيد شيئاً من طفولتنا ولو لبرهة.

بعد القهوة، يمكننا تسجيل الحوار مع الأب العميل الذي يتحدث عن نبض الناس بعد مرور خمس عشرة سنة على التحرير فيقول: «كل شيء تغير وبشكل جذري، نحن كنا نعيش في فقير، والمحتلون ومن تعامل معهم جعلوا هذا القصر ذهبياً، إذ وفر لنا الأشغال والمال، ولكنه في المقابل قيدنا وبتنا في ما يتصل بالتصاريح للخروج من المنطقة الحدودية، محكومين بمزاجية الإسرائيلي والمسؤول اللحدّي. وحين كان أي أحد يعترض على ممارساتهم، يتعرّض منزله للهدم، بينما يتعرّض هو للهدم من المال والعمل، أو للسجن في معتقل الخيام. بعد التحرير اختلف المشهد بشكل جذري، وتحطم القصر الذهبي المزيف».

لكن هل كل ما ذكر يُشكّل مبرراً للعلماء؟ نسأل الأب ليجيب: «لا أبدأ، يجب ألا يكون هناك أي مبرر، إذا عدنا بالزمن إلى تلك الحقبة، يجب أن نشير إلى أن جيش لبنان الجنوبي أنشئ في مواجهة ما سُمّي في حينه فتح لاند، وغياب الدولة بعد دخول الإسرائيلي أوصلنا إلى مرحلة تعامل البعض معها ضد الفلسطيني. ولا ننسى حجم الإغراء من مال وعمل، وهدف ذلك الحقيقي كان متمثلاً في حماية حدود إسرائيل من أي مقاومة ممكنة، وأجرم أن تركيزها على نقاط الضعف جعل البعض يتعامل معها مرغماً، من جهتي واجهت المحتل وأفخر بذلك، ووسائل الإعلام تحدثت عن ذلك في أكثر من مناسبة».

ويشدّد الأب العميل على أن المقاومة تقوم بما يلزم لمصلحة هذا الوطن، وهي ليست مرتبطة لمصالح خارجية كما يروج البعض، فيقول: «من الخطأ النظر إلى المقاومة بشكل ضيق، فهي ليست فتوية، كما إنها تقوم بواجبها في حماية الحدود الجنوبية من العدو الإسرائيلي والحدود الشرقية من الخطر التكفيري. لولا ذهابها إلى سورية لصد هجوم داعش، لكننا سنشهد نهر بارد جديداً والكثير من المعارك التي وقعت قبل أن تبدأ أحداث سورية».

يعود بنا الأب إلى أيار 2000 ليخبرنا كيف دخلت المقاومة إلى القرى المحررة فيقول: «لا أنكر أن الناس كانوا يخشون الانخراط بالمقاومة بعد التحرير، لأنهم أنها ستلجأ إلى منطق النار. لكنني قلت خلال التحرير وأكرر اليوم بعد هذه السنوات: إن الانتماء إلى المقاومة

الساهرة على راحة البال والأمن». أما عن اعتبار البعض أن العيد يرتبط ببينة المقاومة ومن يناصرها فقط فيقول: «لا يمكننا مصادرة آراء الناس على امتداد الوطن، نحن نفخر بما أنجزته المقاومة ونحتفل بعيد المقاومة والتحرير. ومن يعتبر أن العيد لا يعينه فهو حرّ ولن نلزمه بالاحتفال، قد نوضح له الصورة ونخبره عن معاني العيد وأهميته، إنما في النهاية، يعود القرار إليه».

«بدأت أشمّ رائحة التحرير قبل سبعة أشهر من تحقّقه»، يقول المختار ويؤكد أنه لم يخف على هذا الإنجاز حتى في العام 2006. ويفخر أن عملية الأسر البطولية نفذت في قريته (خلة وردة - عيتا الشعب) ويتوجه إلى اللبنانيين والعالم العربي بالقول: «كل سنة والجميع بالف خير، وقريباً سيكون التحرير الكامل لكل العالم العربي من داعش، وستنتصر المقاومة كما عهدناها وسنحتفل على أرض فلسطين».

صوت جميل سعيد جميل (أبي بهيج)، كما أحب أن يعرف عن نفسه فيه، الكثير من الدفاء وكانه مجبول بالحنين والقوة. يخبرنا عن تمسّكه بالمكان مهما جار عليه الزمان فيقول: «خلال الاحتلال، كنت أقيم في بيروت. ولكنني أعرف أن من كان يعيش هنا عانى الكثير. في حرب تموز كنت هنا إلى جانب الشباب، وتحقق النصر الذي نهدية إلى كل أشرف العالم، وهذا ما لا يفهمه الأندال». ويصنّ جميل أن يترجم إحساسه بآيات من الشعر فيشود:

ميش هيك نحن ولاهيك كان شعب لبنان
كنا كلنا عيوناً ع الوطن سهراتنا
ما كان في عنا تفرقة أديان
ولا حد يسالك من أيّ ديانة
كنا عايشين سوا ع الفرح والأحزان
مسلم ودرزي ونصراني وعلماي
من وقت ما إجا ابن صهيون هالنشيطان
ع فلسطين خرب بلاد الكانت عمارة
وكفا عليها المجرم بندر ابن سلطان
إلى سلج جماعة لا مذهب ولا ديانة
ولو ما نزلت المقاومة ع الميدان
ما خلوا لا مسلم ولا نصراني

ويكمل حسن قاسم الحكاية فيقول: «خلال الاحتلال، كنا نعاني كثيراً، خصوصاً حين نريد التحنل بين القرى، وكان العلماء يتحكون بمصير الناس اليوم، اختلف الوضع، والإحساس بالحرية يفوق الوصف وهذه نعمة لا تقدر بثمن. وفي ذكرى التحرير أتوجه بالمعابدة إلى كل إنسان وطني يحب وطنه مهما كان معتقده الديني».

مع كل الناس، من دون انحنياز، ولا تفضيل لأي أحد على حساب آخر... هذا أولاً، أما ثانياً، فإنني أرى في ولادة العيد كل سنة تجديداً للهدم للجنوب ليكملوا مسيرة وحدة الحياة في ما بينهم كي يبقى لبنان ذرة في هذا الشرق».

ونسأل رزق الله عن الذين يقولون إن هذا العيد لم يعد لكل اللبنانيين، فيرد بكل حزم: «هؤلاء مخطئون، ويجب أن يكون لديهم شيء من بُعد النظر والبصيرة الناقية، يجب أن ينظروا إلى العمق أكثر، حينذاك سيرفون ما معنى التحرير وما معنى العيد».

الزهيرة اختارت الصمت

يقف أحد أبناء قرية الزهيرة في حقله منهاكاً ويردّ التحية بأفضل منها، لكنه يرفض مواجهة عدسة التصوير. يتردد، ويكتفي بالصمت. فنحترم مشيئته ونكمل الطريق... وكذا حدث مع غيره من أبناء قريته وبناتها.

عيتا الشعب وإيقاع المواويل

بالكوفة والعلقال، يخترن عباس سليم سرور تجاعيد السنين وما فيها من قسوة، ويتمسك بالمقود وهو السبعيني الذي أنهكته أيام الاحتلال، لكنه أيضاً يدرك معنى الفرح. وعن التحرير وما قبله وما تلاه يقول: «كل سنة وانتم بخير ومقاومتنا ومن معها بالف خير، أنا من عيتا الشعب وعانيت الكثير خلال الاحتلال الصهيوني. وكما ترين، أنا سائق سيارة أجرة، ومن وراء هذا المقود أعاش وعائلتي، أخذوني إلى معتقل الخيام وقيقت أسيراً لمدة شهر، وإبني بقي في المعتقل ثلاث سنوات، وأخي خمس سنوات، ماذا أخبرك بعد، تذهبت كثيراً، أما اليوم، فاقول الحمد لله على النعمة التي نعيشها».

ويؤكد ابن السابعة والسبعين أنه لن يترك أرضه مهما حصل. وإن جرب الصهاينة العودة، فسيقاومهم بالصمود، ولكنه يقف في قرارة نفسه أن الصهيوني لن يعود إلى هذه الأرض، لأن أهلها أحرار ومقاومون. ويباركنا بلكنته الجنوبية المحببة «تعداد عليكم» مودعاً ليكمل طريقه مسكاً بمقوده.

يستقبلنا المختار ماجد طحيني، مختار عيتا، ونشعر أننا من أهل البيت، وفي ملامح الحاضرين في مجلسه حكايا ومواويل كثيرة. وعن إيقاع التحرير بعد هذه السنوات يقول: «لم يزل عيد التحرير نابضاً بالحياة وقتياً في مقتبل العمر، هذا النصر لن يطويه الزمن، والناس يتحلقون حول المقاومة أكثر فاكتر، فهي العين

«البناء»، بالتعاون مع موقع «إذاعة صوت الفرح» الإلكتروني، تجوّلت في عدد من القرى والمدن الجنوبية التي حُررت عام 2000 من الاحتلال الصهيوني، واستطلعت آراء الناس بعد خمس عشرة سنة على هذا الإنجاز الهام في التاريخ اللبناني، لا بل في تاريخ المنطقة ككل.

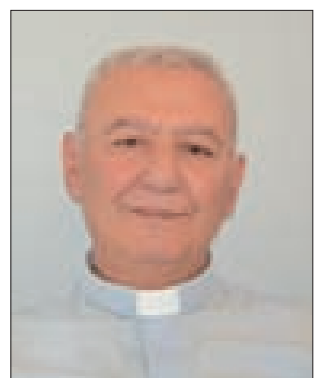
الناقورة تكسر القيد

تفتح بلدة الناقورة بديها لتضمّ الحان الأمواج، وتضجّ أزقتها بالحياة. يباركنا يجلس العمّ حسن مهدي أمام متجره مع الجيران والعائلة، يرحب بالزائر الغريب ولا يخشى عدسته، ويخبرنا عن ماهية عيد التحرير بعد خمس عشرة سنة فيقول: «كما ترين، نحن نتمتع بالهدوء بعد التحرير ولم نعد نخشى شيئاً، لقد عشنا سنوات صعبة بوجود المحتل وعملائه، ولا أخفي عليك أن الخوف ساور الناس في لحظات التحرير الأولى، لأنهم لم يكونوا على علم بما ينتظروهم، لكن المقاومة منحتهم الطمانينة». ويؤكد مهدي أنهم على ثقة بأن لا جرة لدى الصهاينة ليعيدوا الكرة، لأن المقاومة وصمود أهل الأرض لقائهم درساً لن ينسى.

أما ابنته اكتمال مهدي، فتتحدث عن شعورها حين أدركت أن قرى الجنوب تنفست هواء الحرية وهي على مسافة بعيدة منها، فتقول: «كنت في ألمانيا حين تحرر الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي، وشعرت أنني تشقت رائحة أشجار الليون من خلال متابعتي مشاهد التحرير على القنوات التلفزيونية، تمنيت لو أعيش تلك اللحظات بين أهلي، صديقيتي أسرعت بالمجيء كي أشمّ عبق التراب المحرز، نحن لم نختّر الغربة إلا قسراً، وفي النهاية لبنان هو البداية والنهاية بالنسبة إلينا، لذلك علينا أن نحتفل بهذا العيد جميعاً، ونفرح بما حققناه بعدما كسرنا القيد وحلقنا بكل حرية».

علما الشعب والبصيرة الثاقبة

في علما الشعب، وعلى رغم ارتباطه بموعد عمل، إلا أن طانيوس رزق الله بدا متحمساً لرؤيتنا، وتعدده لنا جلسة لاحقة على فنجان قهوة بعيداً عن سرعة العمل، لكنه أراد أن يعايد كل اللبنانيين على طريقته قائلاً: «عيد التحرير من أجمل الأعياد وأثماها في تاريخ الجمهورية اللبنانية، لأنه أعاد الأرض إلى أصحابها والحق المسلوب إلى أهله. الشعب هنا في قرى الجنوب كان يعيش معاناة لا مثيل لها ولا يمكن مقارنتها بأي معاناة، والتصرف الذي حصل من المقاومة إبان التحرير كان مناقبياً وعظيماً وزئياً



الأب نبيل العميل - رميش



مختار عيتا الشعب ماجد طحيني



حسن قاسم - عيتا



أبو بهيج - عيتا



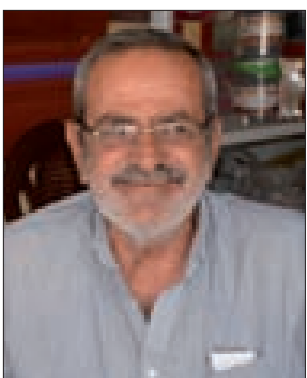
عباس سليم سرور - عيتا الشعب



طانيوس رزق الله - علما الشعب



اكتمال مهدي - الناقورة



حسن مهدي - الناقورة

